مقتطفات من كتاب

ساعات بين الكتب

عباس العقاد

حدوتة كتاب

إليك لأنك تعرف لماذا!!!؟

كبسولة خير للبرمجيات

مصطفى علي سيد

(أبو مهاب)

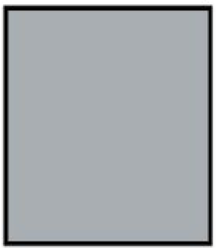
https://cap-khir.com

sedratalmontha@gmail.com

هذه النهاية ـ وسبيل الأستاذ مصطفى صادق الرافعي صاحب كتاب « إعجاز القرآن » الذي بين أيدينا الآن ـ أن ينحو هذا النحو ويزيد فيه على من تقدمه إذا هو أراد أن يجعل لكتابه ميزة في البحث المعقود عليه ، فأما إذا هو قصر في هذا فليكن كتابه إذن نموذجاً في البلاغة البدوية أو تسبيحاً بالآيات القرآنية أو تحية يقرأها المسلم فيرتاح إليها ويقرأها غير المسلم فلا تزيده بالقرآن علماً ولا تطرق من قلبه أو عقله مكان الإيمان والتسليم ، ولكن لا يقل عنه إنه كتاب في إعجاز القرآن ، وليس فيه شاهد واحد على معجزات الكلام ، ولا هو نهج فيه ذلك المنهج الذي أحسن فيه الجرجاني أيما إحسان ، وأفاد به الآداب العربية أيما إفادة فإنما الثناء على القرآن في كتاب تناهز صفحاته الأربعمائة حسنة طيبة يكتب للرافعي أجرها وثوابها عند الله ، ولكنها لا تكتب له في سجل المباحث والعلوم ، ولا تعد من حسنات التفكير والاستقراء .

لقد قرأت « إعجاز القرآن » وخرجت منه على رأي واحد : على أن الكتاب معرض يعرض به الرافعي مبلغ اجتهاده في ثقيل عبارات البدو وتأثر أساليب السلف ، ولهذا يحسن أن يقرأ ويقتنى . أما إنه مبحث في بيان إعجاز القرآن ولا سيما إذا كان القارىء من غير المسلمين فتلك نية للرافعي يثاب عليها كما يثاب الإنسان بالنيات ! .

كتاب سادهانا



للحكيم الهندي تاجور



١٠ ديسمبر سنة ١٩٢٧

سادهانا أو « تحقيق كنه الحياة » هو اسم اختاره الحكيم الهندي تاجور لمحاضراته التي ألقاها بالبنغالية على تلاميذة في مدرسة « بولبر » من بلاد البنغال وترجمها مع بعض أصحابه إلى اللغة الانجليزية ، ثم ألقى موجزاً منها في جامعة هارفارد الأمريكية وبعض المجامع الأوربية . وهذه المحاضرات على إيجازها هي خلاصة حكمة الهند كما أدركها النساك الأقدمون وشرحها قلم الشاعر الصوفي بأسلوبه الرائع وخياله الورع المتخشع وقريحته الصادقة المطمئنة . وهو يتكلم فيها عن إيمان موروث ونظرة عصرية إلى شؤون الحياة لا تتفق لنساك الهند العاكفين على العبادة المنقطعين عن الحياة الدنيا فهي خير ما يقرأه المتشوف إلى فهم روح الديانة الهندية في غير تلك الأسفار المثقلة بالرموز المغلقة والمعاني الغامضة والأمثلة الفاترة من بقايا حكمة يوشك أن ينضب معينها وتتنزل الأوضاع والمراسم منها منزلة الحقيقة والابتكار .

ان الغيرة ثمرة الحب والأثرة والخوف ، وهذه العناصر الثلاثة تثمر في طبائع النساء ما ليست تثمره في طبائع الرجال . فهؤلاء وهؤلاء يغارون . ولكن أحرى الفريقين بالزيادة من هو أحرى بالإشفاق وأخسر صفقة في الضياع .

يفرق تاجور بين المدنيتين اليونانية والهندية أو بين الفلسفتين الغربية والبرهمية بأن الأولى فلسفة نشأت وراء الجدران ، والثانية فلسفة نشأت في الغابات والآجام . فلهذا قامت الحواجز بين الإنسان والطبيعة في عقيدة الغربيين واتصلت الحدود بين الفرد والحياة الكونية الشاملة في عقيدة الهنود ، ويقول تاجور انك تستطيع أن تنظر الى الطريق نظرتين مختلفتين فأما النظرة الاولى فتريك الطريق كأنها فاصل بينك وبين المقصد فانت تحسب كل خطوة فيها الأنوثة ، وقلَّ أن ترى امرأة لا يداخلها أثر من آثار الرجولة ، وقد يتحاب الرجل والمرأة فتكون المرأة هي السيد ، ويكون الرجل هو المسود لأن لعنة السكرة القديمة أصابتهما معاً فخرجت بكل منهما عن سوائه ومالت به إلى غير شكله .

وكأن « أوتو فيننجر » يقول ما تقوله هذه الخرافة حين شرح مذهبه في الحب وقرر في كتابه « الجنس والأخلاق » ألا ذكورة ولا أنوثة على الإطلاق وانما هي نسب تتآلف وتتخالف على مقاديرها في كل إنسان ، ولا عبرة فيها بظواهر الجوارح والأعضاء ، فاذا فرضنا مثلاً أن صفات الذكورة مائة في المائة فأين هو ذلك الرجل الذي تتم له المائة جميعاً بلا زيادة ولا نقصان وتتآلف ذرات تكوينه واحدة واحدة بلا نشوز ولا انحراف ؟ وكيف تجتمع له هذه الصفات المتفرقة بحيث لا تتخلف صفة ولا تحل واحدة محل أخرى ؟ وكذلك النساء أين منهن المرأة التي هي مثل أعلى لجنسها جامع لكل ما هو نسائي في الجمال والعقل والعاطفة والأعضاء والهندام ! إن هذا اتفاق لا يجيء به الواقع لأن التمام من وراء ما يبلغه الانسان أو أي كائن سواه في هذه الحياة . ولكنها أمور نسبية تدخل فيها

ذهبت بها الى أسوان لأدرك بقية الشتاء وآخذ لي من هوائه نصيباً ، ولو شئت لقلت لأتفرج على الشتاء في أسوان . . . . فإن جوه فيها ليجمل



ويشف ويظرف حتى لتخاله طرفة فنية خلقت في نطاق من الهضاب والجبال للفرجة واللهو لا للانتفاع و « الاستعمال » ، او تخاله جواً صنعته الطبيعة أول مرة ، ثم جرى المقلدون لها في صناعة الأجواء على سنة المبتدئين في التفاوت والاجتهاد . فمن لم ير السماء في أسوان لم يعرف ماذا تعني كلمة « الازرق » في معجمات اللغة ، ومن لم ير الشمس في أسوان لم يعرف كيف يجري الضياء دماً في العروق وكيف تسري الحرارة نشوة في الارواح ، ومن لم ير النيل في أسوان لم يعرف ماذا به من سر الآلهة ، وماذا كان الاقدمون يعبدون فيه ويخافون منه ، ومن لم ير العزلة في أسوان لم يعرف كيف تكون عزلة الخالدين في أمان واكتفاء وترفع عن صغائر العيش وأباطيل النفوس .

مصر بلد المحافظة والتخليد . كل ما فيها باق على وتيرته متصل بين ماضيه وحاضره ، وكأنما كانت آلهتها في رأي أهلها الأقدمين تأبى التجديد أو تعجز عنه فهي لهذا توصي القوم أن يحفظوا أجسادهم ألوف السنين لتعود اليها الحياة بعد حين بلا تجديد ولا تبديل ! فروح الحياة فيها لا تعرف إلا جسداً واحداً تلبسه وتستبقيه الى يوم الرجعة اليه ، ولا يخطر للقوم أنها قادرة على إنشاء جسد سواه وابتداع لباس غيره! وهذا مثال المحافظة في تصور الحياة وتقييد القوة المنشئة في الوجود « بشكل » لا تتعداه . وما الأطلام المخلدة ولا القبور المصونة ولا الوراثة المفروضة في العادات والأعمال والعبادات إلا أمثلة أخرى لطبيعة المحافظة التي غبرت عليها بلاد النيل الذي يعود كما بدأ في كل عام ، والرمال التي تحتفظ بكل وديعة تلقى اليها ، والسماء التي تحول الأزمنة والفصول وهي على عهدها لا تتبدل ولا تتحول .

بهذا الخلق في المصريين دامت المسيحية ودام الإسلام ، فلولا صلابة في العقيدة وصبر على العذاب لعفى الرومان على المسيحية في مصر ثم في البلدان كافة ، ولولا وقفة مصر في وجه الصليبيين لذهب الاسلام أو لانزوى بأهله في ركن من الأركان الآسيوية التي يجهلها العمران . بل

لولا مصر في القدم لما كانت الموسوية ـ ولا كانت المسيحية والمحمدية بعد ذلك ـ ما هي اليوم وما شهدها عليه آباؤنا الأولون . فلمصر أثر خالد في كل دين خالد ، وحصة باقية في كل ما تخيل الناس به معنى البقاء .

فسلامة أفندي يطلب هنا من الحرية والفكر ما لا طاقة لها به ، ولو أنه قال إن الطب لم يتقدم قط عما كان عليه قبل عشرة آلاف عام لأن أجسامنا لا تزال تشبه أجسام الأقدمين لما كان قوله هذا أغرب من القول بأن طبائعنا وأخلاقنا باقية على ما كانت عليه في عهد سليمان الحكيم لأننا لا نتكلم في الطبائع والأخلاق بحرية العالم في الكلام عن العلم والصانع في الكلام عن الصناعة . . . ! أفكان سلامة أفندي يرجو أن تكون النسبة بين نفوسنا ونفوس آبائنا كالنسبة بين الطيارة المحلقة والمركبة التي تجرها الخيول ؟ أم كان يرجو أن ترتقي الأخلاق كما ارتقت الكتابة من النسخ إلى الطباعة ، إن حرية الفكر لن تصنع هذه المعجزات ، وإنما نحن نحكي الذين عاصروا سليمان في الآداب والأخلاق لأن طبائع النفوس لا تتحول

أما سهولة الفهم فحسبك منها أن عامية القاهرة قلما تفهم على جليتها في بعض قرى الصعيد وأن عامية مصر لا تفهم في تونس والعراق أو في اليمن وفلسطين ، وأنك تكتب الفصحى فيفهمك من في مراكش ومن في صنعاء ومن في جاوه ومن في نيويورك ، ولكنك تكتب العامية فتحتاج إلى عشرين ترجماناً ينقلونها إلى إخوانك في اللغة والآداب ثم ينقلونها إلى لهجات تختلف في ملابسات المعاني ومقارنات الافكار ، فلا تؤدي مرادك إلا على شيء من التجوز والتبديل .

فلسفة الملابس

١٥ يونيو سنة ١٩٢٧

مزيج من الفلسفة والشعر والعلم والدين والكفر والسخافة والضجيج والسخرية والجد ومن كل شيء ومن لا شيء ـ هذا هو أصدق وصف موجز لكتاب كارليل الذي أسماه « سارتور رزارتوس » أو « الخائط يرفو » أو فلسفة الملابس ، وهو الاسم الذي اختاره له في العربية مترجمه الأديب الفاضل طه السباعي .

ساعات بين الكتب أو ساعات بين الصور ! هي على حد سواء . ففي كل صورة مجودة عبقرية ممثلة ونفس شاخصة وتاريخ قد يفوق التواريخ والقصص بما تضمنه من غرائب الأقدار ونوادر الأسرار . وماذا في الكتب غير ذاك ! فاذا ملكت يوماً أن تقرأ الكتاب وتحادث المؤلف فقلما تملك أن تقرأ الصورة وتساجل المصور ، وكلاهما بعد ذلك في الصحائف سواء .

قالها ماكيافلي وهو يستعيد سكينته ومضى يقول : « إن السطوة في عمله هذا قد دلت على أنه صاحب المزية النادرة التي تمزج بين المواهب العظيمة ونقائضها . أنا لا ألوم ، أنا لا أمدح ، وإنما أنا دارس يختبر ، وإليك رأيي في هذه القضية : إن من طلب شيئاً فإنما ينالـه بإحدى وسيلتين : بالوسيلة المشروعة أو وسيلة القوة ، والأولى صفة الناس والثانية صفة الدواب . ومن شاء أن يحكم فلا مناص له من الاثنتين ولا محيص له من أن يعرف كيف يكون إنساناً تارة ودابة تارة أخرى ، وذلك هو مغزى الأساطير القديمة وما ترويه لنا عن « أخيل » والأبطال الآخرين الذين رباهم « شيرون » ذلك الكائن الذي نصفه دابة ونصفه إله ، أما سواد الناس فلا طاقة لهم بالحرية وإنهم ليخشونها أشد من خشية الموت . إنهم إذا اجترحوا إثماً سحقتهم وطأة الندم ، ولكنه هو البطل ـ رجل القدرة ـ ذلك الذي يطيق الحرية ويحطم الشرائع بغير خشية ولا توبة ، والذي يظل بريئاً في الأذى كما هو شأن الدواب أو شأن الأرباب . فاليوم قد رأيت في المرة الأولى من قيصر علامة على أنه هو المختار من قبل الله » .

إن الرجال الذين يخافون على أممهم الذل ويرجون لها العزة ، أو الذين يخافون على العالم قاطبة أن يرين عليه الرجس ويرجون له الخلاص والرفعة ، او يخافون عليه الظلام والجهالة ويرجون له النور والمعرفة ، ان هؤلاء الذين يخافون ذلك الخوف ويرجون ذلك الرجاء ثم يثبتون على محنة المطامع والآلام اعواماً طوالاً لا يلوى بهم رهبة ولا ينسون الأمة والتألم في مآزق الهول ومدارج الغواية ، أولئك هم عظماء الابطال في تاريخ بني الانسان وأولئك هم شرف الآدمية وعزاء الحياة والمعنى الذي تطيب من أجله الأرض وتنظر من صوبه السماء .

ومن هؤلاء كان سعد زغلول .

الناس أحباء ما ألفوا أعداء ما جهلوا ، هذا صحيح . وقد يكون صحيحاً مثله أن الناس أعداء ما ألفوا أحباء ما جهلوا . فإننا لا نزال على ما فينا من الاستراحة إلى المألوف الذي نهواه مدفوعين الى المجهول الذي لا نراه ، ولا نزال نألف ثم نترك ثم نألف فنشقى بهذا النقل ولا يلوي بنا الشقاء ، وقوام القولين أن العادة راحة وسكون والحياة حركة وابتداع ، فنحن بخير ما جرت عادتنا على سنة الحياة وبقيت لنا القوة التي تعيننا على تبدل الراحات وتعاقب المألوفات حتى إذا فقدنا هذه القوة أصبحنا شيئاً آخر لا يحسن التبدل أو لا يحسن الحياة ، وفقدنا العادة الكبرى التي تنطوي فيها جميع العادات .

إن الربيع ليغني لأنه حي ، ولا سبب للغناء غير ذلك ، ولا حاجة إلى سبب غيره لمن يحس ويعيش ، والربيع حي ، لأنه موسم الحرارة والضياء ! وهل الحياة إلا حرارة وضياء ! إنك لتؤمن بالروح وحده ، أو بالجسم وحده ، ثم تقول إن النور هو مصدر كل شيء وأصل كل حياة ، فلا تكون إلا على صواب ، وما كان نور العين ولا نور الروح إلا شيئاً واحداً في العنصر والقرار ، وإلا عنصراً واحداً لكل ما يظهر في هذه الدنيا للبصائر والأبصار .

كان السلطان سليم أديباً ينظم الشعر ويحسن الاستماع اليه ، وكان حاكماً صارماً لا يستجيب إلى الأدب إذا دعاه صوت السياسة ، فمثل بين يديه يوماً رجل مقضي عليه بالموت عرف ما في نفسه من حب الأدب وتقريب الشعراء ، فتوسل اليه أن يصغي إلى قصيدة أعدها لاستعطافه ، فأذن له في الانشاد ، وما هو إلا أن استهل الرجل أبياته حتى أقبل عليه السلطان بجملته وظهر عليه الاقبال والاعجاب وجرت عبراته على خديه إلى أن فرغ الشاعر من القصيدة وقد حدثته نفسه بالنجاة ووقف يترقب كلمة العفو تنفرج بها تانك الشفتان المزمومتان ، ولكن السلطان لم ينطق بتلك الكلمة ولم يرجع عن قضائه الذي قضاه فيه ، وقال : إنما كانت الدموع جزاء شعره وأما ذنبه فلا بد له من جزاء .

في الوادي الشرقي من أسوان إلهان أو ثلاثة من هذه الآلهة معزولة

تركها الناحتون حيث نحتوها من الصخر الخامل المنسي في غمار المناجم وضنوا عليها بالنقل إلى حيث تقام على قدميها وتتلقى نصيبها من الدعاء والبخور ، تركوها في العراء وأودعوها ذمة الخمول فلا يعلم الناظر إليها من هي ولا من هم أولئك الذين جنوا عليها تلك الجناية فلا هي من الصخر ولا هي معدودة في زمرة المعبودين ، وهي هناك عمل لم يبلغ تمامه وشيء لم يأخذ له صورة في الإخلاد وبنية شائعة بين الآلهة والملوك يطلق عليها كل اسم ولا يطلق عليها اسم من الأسماء ، أهذا « أوزريس » ؟ نعم في زعم أناس يعرفون ملامح الإله ويأخذونه بالمخايل والأشباه ! فمسكين هذا « الأوزريس » النكرة يكاد لا يعرفه أحد بين الصخور إذا فقد الشارة والعلامة ! ومسكينة تلك الإلهية التي تنتهي بصاحبها إلى هذا المصير .

وإذا سألت أناساً آخرين من أصحاب الآلهة الأقدمين أنكروا الشبه وقالوا لك : لا ، ليس هذا صاحبنا « أوزريس » ولا هو في السمت الذي عهدناه لذلك الإله العظيم ، وما هو إلا ملك مجهول أو إله لم يدرج اسمه بعد في دفتر المواليد ، فمن هو ؟ لا نعلم ، ومن ذا الذي يعلم الملوك والأرباب إذا تجردوا من الحلل وخرجوا من المحراب !

أرباب مهجورة

٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢٧

كانت الأقدار في عون الآلهة التي لم ترزق حظها من العبادة ولم يكتب لها نصيبها من الصلوات والقرابين ، إن الجائع الذي لا يجد طعامه لبائس جد بائس ، ولكن أشد منه بؤساً وأبلغ منه شقاوة ذلك الإله الذي خلق ليؤمن به المؤمنون والذي نحت من معدنه لتخر له الجباه وتستلقي في محرابه الهامات ثم هو باق في العراء مستلق على الرمال لا محراب ولا كهان ولا دعاء ولا صلاة . . . فهذا بؤس الآلهة وهو إله البؤس كما يقولون ! ولعل الجائع الذي ضل طعامه واجد من يعطف عليه ويرثي لحاله أو غير يائس من لقيمات يقتات بها من يد غني أو فقير . . . أما الآلهة المنكوبة في عبادها فلا عزاء لها ولا عطف بينها ولا رجاء في إنسان ولا إله !! ومن أين يأتي العطف في عالم الآلهة ! ليس بين الكائنات العليا إلا تقاليد البلاط أو شارة العداء والقتال ، وأما الناس فهم إما معطوها العبادة أو معطوها الفناء وهي عندهم إما رب يطاع أو حجر يلقى على عرض الطريق ، فويل للآلهة المسكينة من عبادها الأقوياء عليها . . . ثم ويل للعباد من آلهة لا تحفظ نفسها وهم يرجونها لحفظ العالمين !

وعندي أن الايمان فطرة في الانسان لأن الايمان في صميمه هو التلاؤم بين النفس وبين الوجود الذي هي مخلوقة فيه . ولن يعقل أن يكون تنافر بين موجود وبين الوجود ، وإنما يعترينا القلق حين نريد

« التصديق » ونحتم على أنفسنا أن تصدق بامور معينة لا محيد عنها ، فعند هذا يكف المرء عن التصديق بتلك الأمور إذا لم تواته الأدلة والبيانات ، ولكنه لن يكف عن الايمان وفيه أمل ولن يكف عن الأمل وفيه حياة .

الضروريات قبل الكماليات ، كلمة تسمعها كلما تحدث متحدث عن أثر يقام لعظيم أو زينة فنية تتجمل بها مناظر المدينة أو دراسة أدبية لا يصنع منها الخبز ولا يحمل عليها الماء والذين يصيحون بتلك الكلمة يظنون أن الدراسات الفنية والأدبية مما يمكن أن يؤجل ويؤجل ويؤجل إلى أن ننظر حولنا فنرى أننا مستوفون لكل صناعة مربحة ولكل علم منتج ولكل عمل يدوي وأننا لا نشتري الإبر ولا الخيط والمخيط من الأسواق الأجنبية ! فيومئذ نقول لأنفسنا : ها نحن اليوم قد استوفينا الضروريات فلنبدأ بالكماليات وها قد وفر عندنا الزاد فلنلتفت للنوافل والفضول ، ونقول للمصورين والموسيقيين والكتاب والشعراء : الآن فاظهروا من حيث كنتم مختفين ثم اخلقوا لأنفسكم المواهب والعبقريات التي لم تكن مخلوقة قبل اليوم . فقد فرغنا من مائدة الطعام والشراب ، ولم يبق لنا إلا أن نلهو بالمنادمة والسماع !

إن الفن في أصل اللغة هو الخط واللون ومنه التفنين بمعنى التزيين والتزويق والأفانين بمعنى الفروع أو الضروب ، وهكذا كل ما تعددت فيه الأشكال والأوصاف مما ينظر بالأعين أو يدرك بالأفكار . وقد سمي حمار الوحش « بالفنان » لأنه كثير الخطوط أو كثير الفنون وكذلك سمي بالزرد لأن جلده كالزرد في نسجه المتداخل أو المتقارب ، فإذا جاز لنا أن ننكر الفنان بمعنى كثير الفنون جاز لنا أن ننكر إطلاق الصفات على غير موصوف واحد ، وهو في اللغة وفي غير اللغة لا يجوز ، بل جاز لنا أن ننكر على العرب أنفسهم وصف الخطوط بالزرد لأن الزرد في الأصل هو الخنق والتضييق ومنها سمي الزرد لأنه حلق ضيق يدخل بعضه في بعض وتنسج منه الدروع .

ومن هذا القبيل تسمية الظبي بالأعصم والظبية بالعصماء ، ثم وصف القصيدة والمعاني بهذه الصفة لأنها تشارك الظباء وغيرها من العصم في المنعة والصعوبة وبعد المتناول ، بل من هذا القبيل نقل العزة من الصعوبة إلى رفعة الشأن والذلة من السهولة إلى الهوان ، وأصلهما موضوعان لغير هذا المعنى ، فالعزيز هو الصعب والذليل هو السهل وليست كل صعوبة شرفاً ولا كل سهولة عيباً ، ولكن هكذا يشاء انتقال المعاني في كل كلمة وكل لغة يعينها الاستعمال ولا يعينها شيء غير الاستعمال .

وقد كان اسم العذراء مريم بصيغه المختلفة اسماً مختاراً لأمهات كثير من الآلهة والقديسين مثل أدونيس بن ميره وهرمز بن مايا وقيروش ابن مريانا وموسى بن مريم وبوذا بن مايا وكرشنا بن مارتالا وهكذا بحيث يظن أن هذا الاسم شائع لا يدل على ذات معينة ، ومما يجري في هذا المجرى أن تماثيل إيزيس وهي تحمل ابنها حورس كانت رمزاً في الكنائس الأولى للعذراء مريم وابنها المسيح . ولما كانت إيزيس إلهة

تحيا الأمم ما بقيت لها أريحية وإعجاب ، وتموت أو تدخل في دور الشيخوخة الفانية إذا نضب في نفوسها معين الأريحية وفترت فيها حرارة الإعجاب . فإن المعجب بإنسان يثق ويرجو ويحس ويقدر ، ولا يعوز الحي شيء من الحياة إذا اجتمع له الثقة والرجاء والإحساس والتقدير .

وإنما يفتر الاعجاب في النفس حين تخلد إلى العجز والراحة وتيأس من النهوض والمجاراة في مضامير السعي والحركة ، فهي إذن غريبة عن مطالب الحياة ومطالب الحياة إذن غريبة عنها ، وكل فوز لا تشترك فيه ولا ترجو أن تشترك فيه هو شيء لا يعنيها ولا يستدعي اهتمامها ولا يربطها إليه سبب ، فيستوي عندها ما يستحق الاعجاب وما ليس يستحقه ، وتنظر إلى ميدان المفاخر كما ينظر المقعد الى ميدان الحرب لا يغشاه ولا مأرب له فيه ، نظرة فتور هي ان لم تكن نظرة كراهة ونفور .

قرأت في الصحف خبراً لم أدر كيف أصدقه لأنه غير قابل للتصديق ، قرأت فيها خبراً موجزه أن فتى مصرياً أحرز لمصر بطولة الدنيا في مصارعة الهواة ، ورفع علمها عالياً بين جميع الأعلام ، ثم هو الآن فراش يقف بالباب في ديوان من دواوين الإسكندرية نعم ، في ديوان من دواوين الإسكندرية التي يعيش فيها الوف من « لا شيء » والتي أرادوا يوماً أن يجعلوها قبلة الشرق والغرب في المسابقات والألعاب .

فتى مصري هو من جهة فراش على باب ، ومن جهة أخرى أقدر رجل من نوعه في كوكب الأرض كله ! يا لها من كبيرة كبرى ! ويا لها من خارقة تحسب في خوارق التاريخ وستحسب لا محالة في خوارق التاريخ .

ذهلت عما أقرأ وأنا أقرؤه وأردد النظر فيه . . ذهلت ولا أزال كلما رددته في فكري يستولي علي ذهول لا أفيق منه على وجه مريح ، كيف يصدق هذا ؟ كيف يكون ؟ لا يصدق ولا هو قابل للتصديق ، إلا بأن تراه رأي عينك وتلمسه لمس يدك ، أما أنه شيء يصح أن يصدق ويصح أن يكون فهذا من وراء ما نعقل ، ومن وراء ما يجب أن نعقل من عجائب الأمور .

أنا لا أعرف الفتى « إبراهيم مصطفى » الذي أحرز لوطنه هذا الشرف بين أمم العالم ، ولكني أعرف أنه مصري وأن عمله لمصر شرف له ولها ، ولكن عمل مصر له وصمة لا تليق بالمصريين وليست مما يصح عليه السكوت .

الغرور والأمل صنوان توأمان ، يمد كلاهما صاحبه ويعينه ويجبر كسره ، فلولا الغرور لما كان أمل ، ولولا الأمل لما كان غرور ، وقد يغر الإنسان بما يأمله أضعاف غروره بما هو مالكه وقابض عليه بيديه ، وقد يأمل الإنسان لأنه مغرور بنفسه مبالغ في تقدير ما يستحقه ، فلا يرى لها القناعة بما هي فيه ولا يزال ينطلق مع الأمل إلى المقام الذي يرضيه .

ويختلف الغرور والأمل كما قد يختلف الأخوان الناشئان من دم واحد في بيئة واحدة ـ فقد يكون أحدهما وديعاً رصيناً والآخر جامح ذو خيلاء وقد يكون أحدهما في يسرة وسعادة والآخر في عسرة وشقاء ، فهما في النسب والمولد سواء ولكنهما في غير سواء .

عندما أكون في الريف لا يشغلني شأن من شؤونه هو أمتع للنفس وأولى بالدرس من تحصيل مواده التي أسميها « أدب الريف » وهي :

(١) الأمثال الموروثة .

(٢) مراثي النواح النسائية .

(٣) الأساطير المعبرة عن أحوالهم الاجتماعية والنفسية .

وآسف كثيراً لأن هذه المواد الغزيرة لم تدخل بعد في الأدب الفصيح ولم تحسب من ثروتنا الفكرية والفنية ، مع أنها ترتقي عند الاختيار والتمييز إلى طبقة تضارع المأثور من مثيلاتها في أرقى الأمم وأبلغ الآداب . وفي بعضها - وهو مراثي النواح - باب للمقابلة بين الألحان المصرية الحاضرة والألحان التي كانت شائعة في عهدي العرب والفراعنة ، وباب آخر للمقابلة بين تعبيرات النفس المصرية قديماً وحديثاً في الحزن على من تفقده في مختلف الأعمال والأحوال . فالمرأة محافظة في عاداتها البيتية التي ترتبط بها مراسم الأسرة ، وشعائر الحزن أبقى الشعائر وأدومها لأنها لا تزال تكسب من الموت صبغة الدوام والتقديس والعصمة من التغيير . فإذا بحثت مراثي النساء لم يخل البحث من نتيجة تكشف لنا من الموسيقى المصرية القديمة وتعبيرات النفس المصرية ما لم ينكشف لنا في غيرها هذا المجال .

من الأقوال المشهورة أنه لو اختلف أنف كيلوبترا في الطول بمقدار ثمن قيراط لاختلف معه تاريخ المسيحية وتاريخ العالم بأسره .

كيف ذلك ؟

قالوا : نعم . لو طال أنف كليوباترا أو قصر بمقدار ثمن قيراط لشاه وجهها وذهبت فتنة جمالها وعز عليها أن توقع في شباكها رجلاً كيوليوس قيصر أو رجلاً كمارك أنطونيوس ومن ثم كانت معركة « اكتيوم » تختفي من التاريخ وكانت دولة « أوغسطس » تنشأ في حدود غير حدودها ومعالم غير معالمها ، فلا بيلاطس يحكم في سورية ولا هيرود يملك على اليهود ولا الظروف التي أتاحت للقديس بولس أن يجوب الأقطار للتبشير بدعوته كانت تتهيأ له كما تهيأت او تحدث كما حدثت . وكان من المحتمل أن تظل رومة بمعزل عن المسيحية بقية حياتها ، إلى غير ذلك من التقديرات التي ليس لها اليوم ميزان توازن به ولا يقف بها التحليل عند غاية .

ذلك مثل مما يصح أن يتغير في تاريخ الدنيا إذا تغير فيه أنف امرأة ، وليس هذا التغيير بالأمر الحقير كما يقول الأستاذ ولا سيما في رأي السيدة التي تحمل ذلك الأنف الذي يراد به أن يقصر أو يطول . . ! ولكنه بالغاً ما بلغ من الخطر وجلالة الشأن تغيير يعجب الكثيرين إذا قيل لهم إنه يتصرف بالدنيا والآخرة هذا التصرف وتتعلق به مقادير الأمم وآمال بني الإنسان في العالم المجهول .

انظر الى من قال

لا الى ما قيل

على هذه السنة نشأت في تقدير كل كلام . فليس عندي أشد خطأ من القائلين « انظر إلى ما قيل لا إلى من قال » ولا أستطع أن أفهم كلاماً حق فهمه إلا إذا عرفت صاحبه ووقفت على شيء من تاريخه وصفاته . وفي مذكرات جمعتها وطبعتها في سنة ١٩١٢ باسم « خلاصة اليومية » أقول :

« انظر إلى ما قيل لا إلى من قال » قاعدة لا يصح إطلاقها في كل حال ، فالكلمة تختلف معانيها باختلاف قائليها . . . وكلمة مثل قول المعري مثلاً :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد

يؤخذ منها ما لا يؤخذ مما تسمعه في كل حين بين عامة الناس من التذمر من الحياة وتمني الخلاص منها ، فإننا نثق بأن المعري مارس الأمور الجوهرية في الحياة ودرس الشؤون التي تكون بها عذبة أو مرة ، ونكداً أو رغداً ، ولم يسبر منها أولئك العامة إلا ما يقع لهم من الأمور التي لا تكفي للحكم على ماهية الحياة » .

المطبعة والثقافة الشعبية

قد توجد الثقافة ولا مطبعة وقد توجد المطبعة ولا ثقافة .

هذا بعض الحقيقة ، أما الحقيقة كلها فهي أن المطبعة قد تمنع الثقافة فتكون في منعها أشد قسوة وأصعب مراساً وأطول أمداً من الغشمة الأغبياء الذين يظهرون في عصور الجهالة والركود وهم كارهون للعلم نافرون من الأدب ، فيصدون الناس عنها ويقيمون من جدران السجون سدوداً بين الشعوب وضروب الثقافة .

فالغاشم المستبد يقول للناس لا تتعلموا فلا يتعلمون إلى حين ، وربما أغراهم المنع بطلب العلم ومعالجة الخلاف أنفة من الطاعة العمياء .

أما المطبعة فلها طريقة أخرى في منع الثقافة الصحيحة وحرمان الشعوب من تداولها والإقبال عليها . وطريقتها هي أن تنشر الرديء الغث فيقل الإقبال على الجيد القيم ، وهي تنشرها باختيار الناس فلا يشعرون بغضاضة ولا يتحفزون لمقاومة ، ولعل الذي يمنع الجيد والرديء ، ويغريك بالخلاف أرحم من الذي يمنعك الجيد ويعطيك الرديء ولا يحرك من نفسك الرغبة في التبديل .

اقرأ في كتاب إخوان الصفا فصلاً في « معرفة أرباب الساعات » تجد فيه : « أن رب يوم الاحد الشمس ، ورب يوم الاثنين القمر ، ورب يوم الثلاثاء المريخ ، ورب يوم الاربعاء عطارد ، ورب يوم الخميس المشتري ، ورب يوم الجمعة الزهرة ، والسبت زحل » . وراجع أسماء الايام في اللغات الافرنجية يظهر لك ان تلك الاسماء إن هي إلا ترجمة هذا الكلام وأن الاوربيين من أمم الشمال إلى أمم الجنوب كانوا يأخذون عقائدهم من الشرقيين منذ آلاف السنين .

فيوم الأحد (Sunday) معناه بالانجليزية يوم الشمس كما تقدم .

ويوم الإثنين (Monday)أو (Moonday) معناه يوم القمر وهو أكبر الكواكب بعد الشمس في رأي الأقدمين .

ويوم الثلاثاء (Tuesday) معناه يوم تيو ، وهو المريخ عند أبناء أوربا الشمالية وترجمته بالفرنسية (Mardi) أي يوم مارس وهذا المريخ باللغتين الفرنسية والإنجليزية .

ويوم الأربعاء Wednesday معناه بالإنجليزية يوم أودين وهو يوم عطارد عند أمم الشمال التي تسلسل منها الإنجليز ، وترجمة اسم اليوم بالفرنسية (Mercredi) أو يوم مركيورMercure وهو عطارد في اللغات الافرنجية الحديثة .

ويوم الخميس Thursday معناه يوم ثور إله الرعد والصواعق عند أمم الشمال وإله الرعد والصواعق عند اليونان والرومان هو جوبتير أو المشتري وترجمة اسم اليوم بالفرنسية Jeudi أو يوم المشتري .

ويوم الجمعة Friday معناه يوم فراي زوجة أودين وربة الحب عند أمم الشمال التي تسلسل منها الانجليز كما تقدم ، وترجمة اسم اليوم بالفرنسية Vendredi أي يوم الزهرة .

ويوم السبت Saturday معناه يوم زحل The day of Saturu كما كان معناه ومعنى الأيام الأخرى عند البابليين .

مصطفى كمال

أحق شخصية بأن يكتب عنها هذا الأسبوع هي شخصية الرجل العظيم والشرقي العظيم الذي فارق الدنيا منذ أيام ، ونعني بها شخصية مصطفى كمال منشىء « تركيا الحديثة » ونافخ روح الحياة في بنية تلك الدولة التي اشتهرت زماناً باسم الرجل المريض .

فمصطفى كمال لا يلغي الحجاب مثلاً لأنه قرأ كتاباً في المساواة بين الرجل والمرأة ولا نخاله كان يبقي الحجاب لو قرأ ألف كتاب في تسويغه وتفضيله ، وإنما يلغيه لأن حياة السفور والرياضة والرقص والمرح أقرب إلى وثبات القوة الحيوية من قيود العادات والموروثات .

أو لك أن تقول إن مصطفى كمالا كان ينكر الأشياء بطبعه ودمه قبل أن ينكرها بتفكيره وتمحيصه ، وهذا هو سر اتباعه للسياسة الدنيوية والشرائع المدنية وإيثاره للآداب الأوربية العصرية على الآداب الشرقية العثمانية ، وقلة صبره على الأمور التي يعافها ويستطيع أن يمنعها ، فلم القيود الموروثة إذن وهو لا يعجز عن كسرها ولا يفقه لها علة ؟

ولدافيد هيوم الفيلسوف الإنجليزي رأي في المعجزات ينكرها أولا ثم يذهب إلى أنها على فرض ثبوتها لا تصلح للدلالة على مقاصد أصحابها ولا تلزمك الحجة بصدق ما يعرضون لك من الدعاوى والأنباء . فهب أن رجلاً جاءك وقال لك : إن واحداً وواحداً يساويان واحداً ونصفاً فأنت تنكر عليه هذه الدعوى وتناقشه فيها بالأدلة الحسابية ، فإذا قال لك بعد ذلك إنني أستطيع أن أريك الشمس طالعة من المغرب إلى المشرق أو النجم يجري في السماء لغير مستقره ، ثم استطاع ذلك فعلاً فأنت تكبر الأمر وتستهوله وتحاول تعليله ، ولكنك لا ترى كيف يقنعك هذا بأن واحداً وواحداً يساويان ثلاثة ولا يساويان اثنين كما علمت بالحساب والبرهان . وإذا زعم زاعم لك أن حادثاً من حوادث التاريخ المحققة لم يقع قط في الدنيا أو وقع على خلاف الوصف الذي أجمع عليه الرواة فأنت قد تعجب لذلك وتطلب الدليل على كذب الرواة وخطأ التواريخ ، فإذا جاءك المدعي بدليل يثبت به قدرته على رفع الأشياء بغير روافعها المألوفة وإظهار الأشياء في غير مواعيدها الموقوتة أو ما شابه ذلك من شواهد القدرة ودلائل الإعجاز فالمسألة تظل في نظرك كما كانت في مبدأ الأمر قائمة بغير دليل مقنع من جنس القياس المنطقي الذي تجوز به المناقشة . فالبرهان العلمي أو البرهان المنطقي هو عند دافيد هيوم البرهان لا سواه الصالح وحده للاثبات وللنفي والتصديق والتكذيب .

وكلام الفيلسوف فيه شيء من الوجاهة ولكن فيه كذلك شيئاً من المغالطة إذ ما هي دعوى النبي الذي يطالبك بالإيمان وتطالبه أنت بالبرهان ؟ دعواه أنه مرسل من عند الله برسالة قد تفوق مدى العقل والإدراك ولابد فيها من التسليم فالنجاة أو الإنكار فالهلاك ، وكل ما